الشعر والصحافة

أرشيبالد ماكليش شاعر يقف على رأس القلة العظيمة من شعراء أمريكا المعاصرين ، وهو ليس شاعراً يقول الشعر ويتذوقه فحسب ، ولكنه باحث وأستاذ للنقد ، يتميز بعمق الفكرة وبراعة التحليل ، وقد عرفناه مؤخراً فى كتابه القيم « الشعر والتجربة » الذى ترجمته الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسى .

وفى هذه المحاضرة التى نجتزئ هنا أهم ماجاء فيها – يتحدث ماكليش عن علاقة الشاعر بالصحافة حديث الشاعر الدارس الخبير ، وقد ألقاها بجامعة مينيسوتا ونشرتها مجلة أتلانتيك الأمريكية الأدبية[1] . !

يقول ماكليش :

« من مسلمات حضارتنا – إذا كان ذلك هو الاسم الخاص لفوضى الأفكار التى نعيش فيها – أن الشعر نقيض الصحافة ، وأن الصحافة نقيض الشعر . . . فلو أردت أن تهين توماس ستيرنز إليوت – مما لا يحلم بفعله أحد فى واشنجتن أو فى أى مكان آخر – فإنك ستسمى « الأرض الخراب » صحافة ، بل إن الكتاب الكبار فى المقابلات غير المفيدة التى تنشرها مجلة « باريس ريفيو » ينصحون الناشئين بتجنب ممارسة الصحافة . . . وباختصار فإن حدى (لوحة) مفاتيح الآلة الكاتبة فى عصرنا أو النهايتين اللتين لن يحدث أن يلتقيا : شرق عالمنا المحطم وغربه – وهما الشعر والصحافة .

ولكن لو أنك تمعنت فى الأمر فلمَ ينبغى أن يكون الشعر والصحافة قطبى عالم الكلمات فى عصرنا ؟ لماذا ينبغى أن يتخذا أمامنا مظهر النقيض للنقيض ؟ إن هناك فروقاً بينة بين الاثنين – وهى فروق لا يستطيع أحدنا أن يضع يده عليها ، لكن أهى فروق بينة حقيقة ؟ . إن الشعر فن ، نعم ، أو هو ينبغى أن يكون كذلك ، لكن هل الصحافة نقيض الفن ؟

« إن أحداً لا يدعى أن القصص الخبرية التى تنشرها جريدة شيكاغو تريبيون على سبيل المثال عمل فنى بالمعنى العادى لذلك المصطلح على الأقل ، لكنّ أحداً لا ينكر أن الأعمال الصحفية العظيمة تعيش وتوجد ، وأنها حين تعيش وتوجد فإنها توجد خلال نظام خاص بها ، نظام

Atlantic, Monthly, March 1959. PP 40-46. (١٧)

يكشف عن نفسه ، كما تكشف أنظمة الفن عن نفسها دائماً ، عن طريق الشكل ، وليس أسلوب العمل الصحفى العظيم هو الرجل كما تقول العبارة السطحية ، فأسلوب العمل الصحفى العظيم هو الرجل بلغة الهدف : فالرجل يعمل بأقصى ماوسعته القدرة وصولاً إلى غاية يضع عليها عينيه تماماً ،لكن هذا ، بالطبع إنما هو – على وجه الدقة – خاصية أسلوب أى عمل فنى – تلك الخاصية الدقيقة التى تميز العمل الفنى من مجرد الانغماس الشخصى من ناحية ، أو من كونه عملاً غير شخصى من الناحية الأخرى .

« وبتعبير آخر لا يمكنك أن تميز الصحافة من الشعر بأقصى درجة تميز بها بينهما : كأن نقول ببساطة : إن أحدهما فن والآخر ليس من الفن فى شىء : وإن الشاعر يخلق عالماً بأكمله فى قصائده ، والصحفى مفروض عليه ألا يخلق عالماً ،وإنما أن يبقى قريباً ما وسعته إلى ذلك قدرته من العالم المتاح له وهذا يعنى أن الشاعر يجعل من الشىء شيئاً جديداً ، لكن الصحفى يصف شيئا قديماً أو – على أى الحالات – شيئاً تم حدوثه ، ذلك لأنه لو كان هذا الشىء لم يتم حدوثه لما كان صحفياً ،كما يعنى هذا أيضاً – إن شئنا مزيداً من الدقة – أن الصحفى يقوم بعملية انتقاء من أشياء موجودة بالفعل : حوادث تم فى الحقيقة حدوثها ، تصرفات حدثت بالفعل ، موضوعات مشاهدة ، أصوات مسموعة ، على حين ينبغى على الشاعر أن ينسج سجله من داخل نفسه كالعنكبوت ولكن لو أننا تركنا النظرية ونظرنا فى التطبيق – أى فى القصائد المتميزة والموضوعات الصحفية المتميزة – فهل سيبقى هذا الفارق على حاله ، كما هو ثابت بين الشىء المخلوق المبدع والشىء المنتقى ؟

« تناولْ أول قصيدة تخطر بذهنك ، أما أنا فأفكر دائماً حين أبحث عن مستويات كهذه فى قصيدة لا أستطيع أن أقرأها ، لأنها كتبت بلسان لايستطيع أى إنسان معاصر الآن أن ينطق به ، وهى القصيدة التى كتبها الإمبراطور ووتى فى القرن الثانى قبل الميلاد فى رثاء محبوبته لى فوجن وقد ترجمها آرثر والى كما يلى :

حفيف ثوبها الحريرى توقف .
وعلى الممر الرخامى يتراكم الغبار
وغرفتها الخاوية باردة ساكنة
والأوراق المتساقطة تتكوم عند الباب
فكيف لى – وأنا أتوق إلى تلك السيدة الجميلة –
أن أخلد إلى الراحة قلبى المحترق ؟

« لكن أيًّا كانت القصيدة التى يسترجعها ذهنك فإن السؤال الذى أضعه أمامك يكون هو السؤال نفسه : هل تبدو لك قصيدتك وأنت تتأملها فى خيالك « مخلوقة » بالمعنى الذى نستخدم فيه تلك الكلمة التى تعنى الحوادث الموصوفة فى سفر التكوين ؟ أليس هناك انتقاء وترتيب كما فى فن التاريخ وفى تطبيقات الصحافة ؟ إن الانتقاء من نوع مختلف . نعم : فالأشياء التى تنتقى هنا يجدها التاريخ شديدة التفاهة ولايتسع لها وقت الصحافة فى عجلتها الانفعالية للحصول على الخبر ، وكذلك يختلف تنظيم الجزئيات المنتقاة وترتيبها : فالأشياء التى يؤلفها الشعر لن يؤلفها التاريخ أبداً بسبب التزامه بمنطق العلة والأثر ، ولن تؤلفها الصحافة أبدا بسبب التزامها بمظاهر الوضوح فى الفهم والإدراك . . .

« إن الحزن فى الصحافة دموع وآهات ، وليس أوراقاً ميتة عند عتبة باب ، أو سكون صوت الحرير ، ذلك السكون الذى يعقب توقف الصوت . لكن مع التسليم بكل هذا – والتسليم . كذلك ، بأن بناء الكلمات وتأليفها فى الشعر مختلف غاية الاختلاف ، وأكثر تنظيماً بدرجة بالغة . وأكثر صرامة بشكل لا يقاس من بناء الكلمات وتأليفها فى النثر الصحفى أو التاريخ – فهل يترتب على ذلك فى الحقيقة تلك الهوة السحيقة التى حفرناها بين مفهوم الصحافة ومفهوم الشعر . وهى هوة فسرناها بإطلاقنا على الشعر اسم الفن الخلاق ؟

« ليس ينبغى أن أقول ذلك ، ولكن ينبغى أن أقول : إننا لو أجرينا اختباراً على القصائد الراهنة والموضوعات الصحفية الراهنة فإنه سيؤدى بأى قارئ إلى نتيجة بعينها ، هى أن الفرق بينهما – على الرغم من اتساعه – لايمكن أن تتضح معالمه باستخدام لغة الخلق ، فكلتاهما إعادة خلق مختلفة فى الدرجة لكنها ليست مختلفة فى النوع : ذلك لأن المادة فى كلتا الحالتين هى تجربتنا الإنسانية ، بالنسبة للعالم ولأنفسنا على السواء وهما ليسا مختلفين اختلافاً أساسياً فى الطريقة أو حتى فى الهدف : ذلك لأن طريقة الشعر مثل طريقة الصحافة ، هى الانتقاء من العدم الفوضوى فى شكل التجربة وكلتاهما تهدف إلى تسجيل الجزئيات المنتقاة فى تسلسل قابل للفهم والإدراك .

« ومن الصحة بمكان أن يكون المعنى الذى يخلقه الشعر من جزئياته على خلاف المعنى الذى تخلقه الصحافة : فالمعنى الذى تخلقه الصحافة من حياة رجل وحياة امرأة ، أو من حياة رجل وحياةامرأتين لا يتصور ولا يصح فى الشعر . لكن الحقيقة تبقى مؤكدة أن كلا من سوناتات شكسبير والقصص الخبرية للزواج المنهار خلق جديد لجزئيات اختيرت من اختلاط التجربة الإنسانية فى محاولة لإكسابهما نظاماً ، وجعلهما مفهومين . فالغاية إذن هى الإدراك والفهم .

« والشعر برغم القوى السحرية الغالبة لدى أعظم الشعراء إنما هو نشاط إنسانى ، والإنسانية

إنما تحتاج – بشكل ماس وملح للغاية – إلى إعادة خلق عوالم جديدة بلغة الفهم الإنسانى للعالم الذى نلقاه . وهذا هو الواجب الذى تلتزم به الفنون كافة . لقد بلغنا أن الخلق تم إنجازه فى سبعة أيام ، لكن إعادة الخلق لن يتم إنجازها أبدا ؛ لأنه لا بد أن تكون جديدة دائماً عند إنجازها طبقاً لاحتياجات كل جيل من الأحياء .

« غير أن النقطة الأساسية هى أن هذا النشاط لا يختلف فى النوع والنشاط الدائب لأجيال الصحفيين والمؤرخين الذين يواجهون بدورهم عالماً جديداً ومتحولاً ، والذين ينبغى عليهم أيضاً أن يستحدثوا طرقاً جديدة للتعبير عنه . ومواد الشعر أيّاً كانت معجزاته – إنما تجمع حيث تجمع مواد التاريخ والحاضر والماضى فيما دعاه كيتس بحقل الحوادث القابل للحدوث . والشعر يحول هذه المواد عن طريق مقدرة لا تشجع الصحافة استخدامها ، ألا وهى مقدرة الخيال ، لكن حصيلة التحولات ليست نقيضاً لحصيلة العملية المعروفة فى الصحافة باسم « جمع الأخبار »

« وإعادة الخلق التى يقوم بها الخيال لاتتصل بتجربة العالم الطبيعى الواقعى : فقد يتحرر الشعر من مواد تلك التجربة التى لا يجد التاريخ والصحافة الحرية فى أن يتحررا منها . والحق أن هذا الاعتماد من جانب الشعر – وجميع الفنون سواء – على التجربة الإنسانية للعالم الراهن – إنما ازداد وضوحاً عن طريق محاولات الفن التى تعددت فى عصرنا بقصد الفرار من العالم الراهن : فالقصائد التى تنشأ على سبيل المثال من العقل الباطن كما فعلت قصائد السيرياليين الأوائل ، أو كما تبدو فاعلة – لا تزال قصائد تجربة ، ولاتزال قصائد نظمتها عملية انتقاء من لحظات التجربة . والفرق الوحيد هو أن غربال الانتقاء وضع فى مكان ماخارج العقل الواعى ، لكن القصيدة لاتصبح بالضرورة خلقاً فطرياً منبتّ الأبوين ، غير « أن المرء ليس بحاجة إلى أن يقصد السيرياليين أو خلفاءهم كيما يصل إلى الهدف ، فإن أكثر الأمور الخيالية وضوحاً فى جميع القصائد المألوفة ستشهد – لو أنك طالعت هذه القصائد مطالعة حقيقية – بأن ما فيها من ضروب الخيال ليس أقل أصالة ، ولا أقل صحة ولا أقل واقعية – ولاأقل جذوراً بالنسبة للتجربة على الأقل – من الحقائق الشديدة الاتصال بالمادة . . .

« لست أوحى بأن حقائق الصحافة معدومة المادة والأصل ، ولكننى أوحى مجرد إيحاء بأنه ليس ثمة اختلاف كهذا بين حقائق الصحافة وأخيلة الشعر . . . ولك أن تدلل على ذلك لنفسك بطريقتين : قراءة القصائد وقراءة الصحف . فماذا تذكر عن ثورة ١٩٥٨ فى العراق ، وهى أكثر القصص الخبرية أهمية فى حينها برغم أنها ليست أفضلها من ناحية جمع المادة الخبرية ؟ إن ما أذكره هو تفاصيل اغتيال رئيس الوزراء العجوز (يقصد نور السعيد) ، ثعلب الصحراء

المشهور وأقوى رجل فى وادى النهرين الذى قتل بالرصاص وهو يرتدى ثياب امرأة عجوز ! ولماذا أذكر ذلك ؟ لأن الحقيقة تصبح شيئاً أكثر من الحقيقة فى هذه القصة ، لأننى أفهم شيئاً عن الرجل وعن أولئك الذين قتلوه ، لأن الحادثة السياسية تصبح حادثة إنسانية ، وتلقى ظلاً يتجاوز بغداد بكثير ويتجاوز الصحراء بكثير ويتجاوز الشرق الأوسط . . . غير أن ما يؤلفه الشعر من جزئيات يعد أكثر دواماً مما تؤلفه الصحافة : إنه أضخم ، إنه يعمق أكثر ، إنه أكثر معنى ، إن فيه جمالاً ، لكنه ليس نقيضاً فى النوع . فالشعر والصحافة – أو الشعر والتاريخ إذا وضعناهما فى مصطلحين أكثر حسماً – ليسا نقيضين ، ولا يمكن أن يكونا نقيضين ، والفكرة القائلة بهذا فكرة باطلة . ، .

« إن الذى يميز الشعر حقيقة من الصحافة – بغض النظر عن الفروق الواضحة فى الشكل – وهى استعمالات الألفاظ وأشكالها وتسلسلها – ليس فرقاً فى النوع ، ولكنه فرق فى البؤرة : فالصحافة تتعلق بالحوادث فى حين يتعلق الشعر بالمشاعر ، الصحافة تتعلق برؤية العالم فى حين يتعلق الشعر بالإحساس بالعالم ، الصحافة ترغب فى أن تحكى ماحدث فى أى مكان كأنه هو نفسه ما يحدث لكل إنسان فى حين أن الشعر يرغب فى أن يقول مايجب أن يتحلى به كل إنسان ، كأنه وحده الذى كان هناك !

« وأفضل تعريف للصحافة يظهر (يومياً) فى صحيفة نيويورك تايمز بأنها : « جميع الأنباء الصالحة للنشر » وأفضل تعريف للشعر جاء فى الترجمة الأدبية لكوليردج بأنه « الموازنة والمصالحة بين الصفات الناشزة . . .بتخطى الحالة المعتادة للانفعال بنظام أكثر من المعتاد » والفصل بين الصحافة والشعر – أو التاريخ والشعر – ومن ثمة وضعهما فى نهايات متعارضة فى عالم الكلام – معناه : أن تفصل المشاهدة عن الإحساس بها ، والانفعال عن ممارسته ، والمعرفة عن تحققها . . .

إن القصائد العظيمة أدوات للمعرفة التى تنقل حية إلى داخل القلب عن طريق العاطفة ، لكنها تبقى معرفة برغم هذا . والإحساس بلا معرفة لم يصنع عملاً فنياً ولن يصنعه . والمحاولة التى يقوم بها الشعر المعاصر ويلح عليها بازدياد كى يفصل المشاعر عن مناسباتها ، ليتبع المشاعر كما هى ومن أجل ذاتها متجاهلاً عن عمد الحوادث التى تستمد منها – لا يمكن إلا أن تكون محاولة ضارة بالفن : فالقصائد التى تؤلف على هذا النحو تشبه طائرات الأطفال المصنوعة من الورق حين تطير بلا خيوط . . .

« إننا نعرف ماحدث فى هيروشيما . . . لكن هل نحس بمعرفتنا ؟ . . . إننا نبدو ، على العكس ، أقل وأقل قدرة على تلقى حقائقنا داخل خيالنا ، حيث يمكنها أن تبعث إلى الحياة مع الإحساس .

« لقد طغى علينا طوفان الحقائق ، لكننا فقدنا ، أوها نحن أولاء نفقد قدرتنا الإنسانية على الإحساس بهذه الحقائق . ولا يزال الشعر يعيش معنا ، يعيش بحمية وروح ابتكارية ، ويقذف بأعلام جدد قادرين على الوقوف مع القديم . غير أن القصيدة فقدت سلطانها فى أذهان الناس ، فنحن نعرف الآن عن طريق الحقائق ، عن طريق المجردات . ونحن نبدو عاجزين عن أن نعرف كما عرف شكسبير الذى جعل الملك لير يصرخ فى جلوستر الأعمى فوق الأرض البور بقوله : أترى كيف يسير هذا العالم ؟ « فأجاب جلوستر بقوله : « إنى أراه بإحساسى » !

« فلماذا نحن عاجزون على هذا النحو ؟ لست أدرى ! إنما أدرى أن هذا العجز موجود ، وأنه خطر ، خطر متزايد ، وأدرى أيضاً ، أو أحسب أننى أدرى أنه أيّاً كان السبب الأساسى للطلاق بين الإحساس والمعرفة فإن ذلك الطلاق يكشف عن نفسه بحيوية غلابة فى صورة العقيدة الغريبة الجاهلة التى تزعم أن حياة الخيال ترقد فى قطب مضاد لحياة الذهن الباحث عن المعرفة ، وأن الناس يمكنهم أن يعيشوا وأن يعرفوا وأن يتحكموا فى تجربتهم على هذه الأرض المظلمة ، وذلك عن طريق عملية الإعلام والإخبار المتراكم ليس غير . . .

« إن العبودية تبدأ حين يتخلى الناس عن الحاجة الإنسانية إلى المعرفة بجماع القلب ، إلى المعرفة من أجل أنفسهم لحمل العبء من أجل أنفسهم – عبء « الطلسم » كما دعاه وردزورث .

« إن الدفاع الحقيقى عن الحرية هو الخيال . . . والرجل الذى يعرف بقلبه أنه رجل ويحس بذاته لا يمكن أن يفرض عليه الصمت . فهو حر بغض النظر عن المكان الذى يعيش فيه ، كما فى حالة باسترناك . أما الرجل الذى يعرف بعقله فحسب الذى لايلزم نفسه ما وراء حضور بديهته والذى لا يحس الأشياء التى يعرفها أو لا يعرف الأشياء التى يحسها – ذلك الرجل ليس حراً مهما كان . . .

« وعندى – على خلاف ما يراه كثيرون – أن الأزمة الحقيقية لحياة مجتمعنا هى أزمة حياة الخيال : فنحن لسنا بحاجة إلى صاروخ عابر للقارات أو إعادة للتسلح الخلقى ، أو نهضة دينية ، بمقدار ما نحن بحاجة إلى أن نبعث أحياء من جديد وأن نستوفى فحولة الخيال التى تأسست عليها الحضارات الباكرة كافة .

« إن المجتمع الذى فقد القدرة على أن يرى العالم بإحساسه بحيث يمكنه أن يراقب فى صمت إمكان الإفناء النووى وهو يستخدم كمناورة دبلوماسية قد يحتاج إلى آلاف مؤلفة من العلماء الشبان بأسرع مما يظن ، لكنه سيحتاج حتى فى هذه العجلة الى أن يتعلم كيف يعرف ؟

* * *

الواقع أن العلاقة بين الشعر والصحافة أو بين الأدب والصحافة كانت ولا تزال تشغل بال الكثيرين من نقاد الأدب ، بل والأدباء أنفسهم ، وبخاصة بعد التوسع الذى أحرزته الصحافة ، وكذلك التقدم الهائل الذى أحرزته وسائل الاتصال فى القرن العشرين .

وقد وضع ماكليش يده على حقيقتين هامتين :

الأولى أن الصحافة تشارك الأدبَ فى أنها رؤية للواقع وإعادة خلق له ، وإن اختلفت درجة الرؤية والخلق . وطبيعى أن هذا الاختلاف واضح غاية الوضوح فى الشعر باعتباره جنساً أدبياً يستخدم إمكانات خاصة فى اللغة والإحساس والفكر ويشترط تشكيلاً معيناً للخلق يعتمد على الإيقاع على اختلاف درجة هذا الاعتماد .

أما الحقيقة الأخرى فهى أن الصحافة لا تعادى الأدب ولا تحاربه ، حقيقة أن بعض الصحف لاتشجع رؤية الأدب للواقع وإلحاحه على التصور والخيال ، وحقيقة أن بعضها يرفضه شكلاً ويقبله موضوعاً ؛ إلا أن الصحافة الجادة التى تؤخذ فى الاعتبار دائماً كمقياس حين تثار هذه القضية لا ترفض الأدب بمقدار ماتعتبره غذاء لوجدان قارئها وجهداً مساعداً فى تشكيل المعرفة لديه . ونحن نذكر أن صحافتنا قامت على أكتاف أدباء ، وأنها كانت تفرد للأدب مكاناً فى صفحاتها الأولى .

وأحسب أننا فى ظل الظروف الاجتماعية التى نعيش فيها الآن – يمكن أن نعيد إلى الأدب مكانته فى صحافتنا التى لم تعد ملكاً لمن كانوا يملكون كل شىء فى الماضى : ذلك لأن الصحافة إذا كانت مرآة وأداة لتغيير المجتمع فإن الأدب أيضاً يشاركها فى هذه الصفة بأسلوبه الخاص : فالفرق فى الدرجة إذن وليس فى النوع ، كما أوضح أرشيبالد ماكليش .